الفصل الثاني

من الحملة الفرنسية إلى السلطان عبدالحميد الثاني

ها هو نابليون قادم على رأس حملة ضخمة من بلده فرنسا لغزو الشرق، فأقبل في ٣٦ ألف جندي بري وعشرة آلاف جندي بحري في ٣٠ سفينة حربية، وكان في معية الحملة نحو مئة وعشرين عالماً فرنسيًا أتوا ليدرسوا أحوال الشرق من كافة جوانبه.

وصلت الحملة إلى شواطئ الإسكندرية في ٣ تموز ١٧٩٨م/ ١٢١٣هـ، ودخلت المدينة عنوة، وانطلق نابليون إلى القاهرة، وانتصر على المماليك في موقعة الأهرام في ٢١ تموز. ثم خلف نابليون القائد كليبر بعد قيامه بحملته على بلاد الشام.

لكن القائد الإنكليزي نلسون دمر الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير البحرية في أول شهر آب، فانقطعت الصلة بين فرنسا وحملتها.

نشطت الدولة العثمانية لحرب الفرنسيين بعد أن أبدى الإنكليز استعدادهم لمعاونتها في إخراج الفرنسيين من مصر، فأعلنت الحرب على فرنسا في ٢ أيلول وانضمت إليها روسيا، هنا سعى نابليون لاحتلال بلاد الشام، وحاصر عكا لكن واليها أحمد باشا الجزار استبسل في الدفاع عنها. ثم التقى الجيش الفرنسي بالعثمانيين عند جبل طابور قرب الناصرة وانتصر عليهم.

وكان نابليون قد عاد إلى فرنسا وترك قائده كليبر فاغتاله الشاب السوري سليمان الحلبي في حزيران ١٨٠٠م/ ١٢١٥هـ.

وسرعان ما انهزم القائد الفرنسي مينو أمام الإنكليز في شهر آذار ١٨٠١م/ ١٢١٦هـ، مما اضطر الفرنسيين إلى طلب الجلاء عن مصر، وتم ذلك في أيلول ١٨٠١م ثم عقد نابليون معاهدة صلح مع الدولة العثمانية في تشرين الأول من العام نفسه.

بعد مغادرة الحملة الفرنسية للشرق قامت إنكلترا بتدمير الأسطول العثماني سنة ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م، لكن تحالف فرنسا والدولة العثمانية وانضمام الأسبان إليها حال دون غزوا الإنكليز للبوسفور، وسرعان ما أجلوا عن المنطقة.

عاد الإنكليز تحت قيادة فريزر وحاصروا رشيد بمصر في ١٨ نيسان ١٨٠٧م/ ١٢٢٢هـ، لكن اضطروا لفك الحصار والرحيل حين أرسل محمد علي والي مصر المدد إليها وكان ذلك في أيلول ١٨٠٧م/ ١٢٢٢هـ.

لقد استولى محمد علي على حكم مصر حين أقبل إلى مصر ضمن الجنود الذين أرسلوا لطرد الفرنسيين ومحاربتهم.

تقرب محمد علي من والي مصر خسرو باشا فعينه قائد فرقة، وسرعان ما استمال محمد علي قلوب زملائه الجند إليه، ولما أحس الوالي بذلك أراد الخلاص منه لكن الجنود طردوه خارج القاهرة، ثم استعان محمد علي بالجند والمماليك للخلاص من الإنكشارية، سعى محمد علي لقتال خسرو باشا واستطاع أسره وسجنه بقلعة صلاح الدين بالقاهرة.

ثم انتخب الأهالي محمد علي والياً على مصر وكاتبوا الباب العالي فأصدر قراراً بتوليته في تموز ١٨٠٥م/ ١٢٢٠هـ.

لكن دس الإنجليز لدى الباب العالي فأصدر قراراً بنقله إلى سالونيك فتصدى علماء مصر وقواد الجيوش لذلك وكاتبوا الدولة العثمانية فأرسل الخليفة لتثبيته في مصر وبذلك صفت الأمور لمحمد علي.

واستطاع محمد علي الخلاص من المماليك في وقعة القلعة أول آذار ١٨١١م/ ١٢٢٦هـ.

في هذه الأثناء تم عزل الخليفة سليم الثالث سنة ١٨٠٣م/ ١٢٢٢هـ وأقيم بعده مصطفى خان الرابع ابن عبدالحميد الأول على يد الإنكشارية، وشُغل الروس بحرب نابليون فأمنت الدولة العثمانية على نفسها، لكن قامت ثورة داخلية انتهت بقتل الخليفة.

ثم تولى الخلافة محمود الثاني بن عبدالحميد الأول، واستمر في المنازعة مع الإنكشارية التي أضرمت الحرائق، واضطر الخليفة إلى الرضوخ لمطلبها، ثم وجه عنايته للإصلاح الداخلي.

عقد الخليفة الصلح مع الإنكليز سنة ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م واستأنف الحرب مع روسيا لكن استطاعت روسيا احتلال بعض مدن الدولة، فسار القائد أحمد باشا إلى الروس وانتصر عليهم سنة ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م واسترد ما ضاع من أملاك الدولة، ثم تم الصلح بين الطرفين في سنة ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م بمعاهدة بوخارست.

ثم عهد الخليفة إلى محمد علي بمحاربة الوهابيين، فأرسل السفن بطريق البحر الأحمر بقيادة ابنه طوسون باشا، فحاربهم واستخلص المدينة المنورة منهم، ثم تابع إلى نجد واحتل بلدة الرسّ ثم عاد إلى القاهرة، ولكن عاد محمد علي فأرسل حملة جديدة بقيادة أكبر أولاده وهو إبراهيم ومن بعض المتشارين الفرنسيين ووصل إلى الدرعية واحتلها ووافق الإمام عبدالله على السفر إلى إستانبول عن طريق القاهرة، لكنه قتل بمجرد وصوله إلى استانبول.

ثم أصدر الخليفة مرسوماً بتولية محمد علي جزيرتي المورة وكريت لقمع الثورة هناك، فأرسل محمد علي ابنه إبراهيم ففتح مدينة ناڤارين، ولم تلبث الدول الأوربية أن تدخلت بحجة حماية اليونان، فعقد معاهدة في أيار

١٨١٢م/ ١٢٢٧هـ، لكن سرعان ما سقطت هذه المعاهدة لاتفاق دول أوربا على إلزام العثمايين بإعطاء اليونان استقلالها، وهبت عواصف الحرب بين الدولة العثمانية ودول أوربا المتحالفة ضد المسلمين وذلك في تشرين الأول، وانهزمت الدولة العثمانية في نافارين وهي مدينة يونانية على الأرخبيل، وتم تدمير الأسطول المصري العثماني، وعقب الحرب خرجت مصر من شبه جزيرة المورة، وألغى الخليفة طائفة الإنكشارية.

ثم نشطت روسيا للاعتداء على مدينة ياش عاصمة البغدان واحتلالها ١٢٤٤هـ/ مارس ١٨٢٨م، ثم دخلت بوخارست وحاصرت مدينة فارنا، ثم انطلقت إلى مدينة أدرنة واحتلتها، لكن تدخل الدول الأوربية حال دون تقدم روسيا إلى إستانبول، وعلى الفور عقدت معاهدة أدرنة ١٢٤٥هـ/ أيلول ١٨٢٩م، وفيها خسرت الدولة العثمانية كثيراً من أملاكها.

لقد صارت الدولة العثمانية ضعيفة وطمع فيها الغرب، ومن ثم فقد انطلقت فرنسا لتحتل الجزائر سنة ١٨٣٠م/ ١٢٤٦هـ.

ثم طمح محمد علي إلى السيطرة على الشام، فأرسل ابنه إبراهيم لحصار عكا، هنا غضب الباب العالي وأرسل جيشاً ضخماً لكنه انهزم أمام القوات المصرية قرب مدينة حمص، ثم اقتحم المصريون عكا، تزايد غضب الباب

العالي وأردف بجيش من ستين ألف مقاتل، لكن انقض الجيش المصري عليه فمزقه تمزيقًا.. في ٢٩ تموز سنة ١٨٣٢م/ ١٢٤٨هـ، ثم هزم جيشاً عثمانياً ثالثاً في كانون الأول ١٨٣٣م/ ١٢٤٩هـ، وأسر قائده قرب مدينة قونية.

هنا نشطت دول أوربا لحرب إبراهيم بن محمد علي خشية أن يحتل إستانبول ويلغي الخلافة العثمانية، فانعقدت معاهدة كوتاهية بين الدولة العثمانية ومحمد علي، ونصت على أن يكون حكم مصر له مدة حياته وأن يكون له حكم بلاد الشام، وأن يكون ولده إبراهيم حاكماً لإقليم أضنه، وتم ذلك في ٥ مارس ١٨٣٣م.

وسرعان ما اشتعلت الحرب بين محمد علي والعثمانيين قرب نصيبين في حزيران ١٨٣٩م/ ١٢٥٥هـ، وانتصر فيها المصريون، وما لبث السلطان محمود الثاني أن توفي في تموز ١٨٣٩م/ ١٢٥٥هـ وخلفه ولده عبدالمجيد.

والآن نمضي خببًا ونأتي على بقية الأحداث، لقد عقدت معاهدة ١٢٥٦هـ/ يوليو ١٨٤٠م بين الباب العالي ومحمد علي، وبمقتضاها أصبح محمد علي والياً على مصر هو وذريته، وله حكم عكا مدة حياته، وسرعان ما انسحب المصريون من الشام في كانون الأول ١٨٤٠م/ ١٢٥٦هـ.

سعى السلطان عبدالمجيد لعمل الإصلاحات الداخلية، لكن في سنة ١٨٥٣م/ ١٢٧٠هـ هاجمت روسيا الأسطول العثماني في البوسفور ودمترته تماماً، فنشطت إنكلترا وفرنسا بقطعهما الحربية إلى تهديد روسيا حماية للدولة العثمانية.

ولم تلبث الدولتان أن حاربتا روسيا في أيلول ١٨٥٤م/ ١٢٧١هـ وفي معيتهما الدولة العثمانية، فانهزم الروس، واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن تمت معاهدة باريس في ٣٠ آذار، ١٨٥٦م/ ١٢٧٣هـ التي حفظت للدولة العثمانية أملاكها وأوقفت روسيا عند حدها.

وسرعان ما انطلقت دول أوربا إلى التدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية.

والطريف أن الخليفة مراد الخامس بن عبدالمجيد خان قد تم عزله في آب ١٨٧٦م/ ١٢٩٣هـ، وتولى مكانه أخوه عبدالحميد الثاني الذي كان له في تاريخ الدولة العثمانية شأن عظيم ومكان جليل.